الخاتمة

الحمد لله عظيم الحجّة والبرهان شديد السلطان، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكـــن، الحمد لله الذي أتم نعمته أولاً وآخرًا، ووفقني للبدء والانتهاء، وكان بي حفيًّا.

وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله إمـــام الهـــدى والرشاد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فقد كان هذا البحث في بلاغة الاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم قبسات من الذكر الحكيم الذي بعثه الله إلى الخليقة لتهتدي بهديه، وتعشو إليه كلّما أظلمت الدروب. وما وصلتُ فيها إلى استقصاء لمسالك الاحتجاج والاستدلال القرآنيّ فدون ذلك تُنفق القوى، ويقصر الشأو، وينبتّ الظهر، لكن حسبي تبصير المتدبّر للقرآن الكريم بشواهد عن أساليب حجاجه واستدلالاته، وتفوّقها على طرق المتكلِّمين والمناطقة؛ إذ حوت أسمى درجات البيان، بتآزر بدائع الجمان في نظم بديع يضمّ الجمال والوضوح مع الكمال والجلال، «ولو أن المتكلِّمين الذين عُنوا بإثبات العقائد والجدل فيها سلكوا مسلك القرآن، وساروا في سمته لكان علمهم أكثرَ فائدة، وأدنى جنًى، وأينعَ ثمارًا، لكنهم سلكوا المنطقَ وقيوده، والبرهانَ وأشكاله، فكان علمهم للخاصّة من غير أن يفيد العامّة، فإنّ العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم، ولا يدركون شيئا من أشكال الأقيسة»[1].

وكان من فضل الله عليّ أن كانت هذه الجولة في بلاغة الاحتجاج العقليّ التي تنقَّلت فيها مع أســـاليبه البديعـــة، وأفانينه المعجزة في مـــثَل البـــلاغة الأســـمى؛ مُنعِـــمة النظر في بلاغتها الباهرة، متوسِّمة ما وراءها من مقاصد ولطائف.

فقام البحث على بابين، أبرز أوّلهما: أساليب الاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن : ٤١٠-٤١١ .

واندرجت تحته ثلاثة فصول هي أبرز طرق الحجاج والبرهنة، أولها طريق الحوار، وظهر جليـــًّا في أساليب الاحتجاج التي تُبنى على كلام المخاطَب، من حيث طريقة عرض القضيَّة وردّها، والطريق الثانية بالردّ على الشُّـــبَه والدعاوى الباطلة التي ترِد على ألسنة أهل الضلال، ببناء الكلام على مقدِّمات عقلـــيَّة، تثير الفكر للنظر في القضايا المعروضة، والطريق الثالثة بالحجج والبراهين التي تأتي بطرق الاستدلال المختلفة المبنيَّة على المقدِّمات والنتائج، لتثبيت العقيدة وتقرير أصولها، وتصفية النفوس من شوائب الشرك والكفر، وكان الباب الثاني عن السمات البلاغيـــَّة العامَّة للاحتجاج، طوّفت فيه من فصل لآخر، ما بين سمات نظميَّة، إلى أخرى موضوعيّة، إلى درجات للاحتجاج، وما تمتاز به، إلى تأمُّل في أغراضه البلاغيّة العظيمة، واستكناهٍ لطواياها.

وآن أن أثني عنان القلم، ولولا كبحه لأغراه الثراء الواسع في بلاغة القرآن وإعجاز نظمه وجليل مقاصده للمضيّ قدمًا في اكتشاف أسرار بيانه الذي لا يحدّ، واستشراف عجائبه التي لا تخلَق على كثرة الردّ!

وها أنا ذي أقف على الضفاف بعد هذه الرحلة الإيمانية الشائقة مبـــهورة بجلالهـــا مســـجِّلة أبرز نتائجها :

- يعدّ الحِجاج في القرآن بما أتى عليه من أساليب متنوِّعة من أبرز مظاهر البلاغة القرآنيّة بخاصّة، والبلاغة العربية بعامّة، يعطي جوانب النفس -الحسِّـــيَّة والمعنويّة- نصيبها المطلوب من التأثير، فيذكِّر المؤمنين، ويهدي الكافرين، ويفحم المعاندين. يقول الفخر الرازيّ (٦٠٦هـــ) : «لما تأمَّلنا القرآن وجدنا فيه من الدلائل العقليـــَّة على التوحيد والحشر والنبوَّة، وشرح صفات الله تعالى، وبيان نعوت جلاله، ما لم نجـــده في شيء من الكتب، ووجـــدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها، وجدناه مبرَّأ عن التناقض والتهافت، فكان هدًى ورحمة من هذه الجهات، ووجدنا القوى البشريَّة قاصرة على جمع كتاب على هذا الوجه، فعلمنا أنه ليس إلاَّ من عند الله تعالى، فكان القرآن معجزًا من هذه الجهة»[1].

(١) التفسير الكبير للرازي : ٤٩/١٢

– تظهر بلاغة الحِجاج القرآني بتآزر السمات النظميّة بكافّة مستوياتها في التركيب والتصوير والتحسين، وتناسب أجزائها، وطريقة تنظيمها.

– تتراوح أساليب الاحتجاج بين الشِّدَّة والعنف، فبعضها يشتدّ، وبعضها الآخر يعنف تبعًا للحال والمقام.

– كشف البحث عن مصطلحات بلاغيّة بكر أشار إليها العلماء بإشارات عابرة، و لم تنلها أيدي الدارسين في معظم البحوث البلاغية، بل ربما جاء عنها بعض الإلماحات، نحو الكلام المنصف، والمناقضة ومجاراة الخصم، وإخراج الممكن إلى الممتنع، والسبر والتقسيم، فسعى البحث إلى تحويل إشارات العلماء عنها إلى تطبيقات في مجال الاحتجاج.

– أبانت الدراسة عن العلاقة بين بعض المصطلحات المترادفة والمتقاربة والمتداخلة، واستنبطت تعريفات لما يخص الاحتجاج العقليّ منها، ومن ذلك القول بالموجب وعلاقته بالأسلوب الحكيم والرجوع، وسوق المعلوم مساق غيره وعلاقته بكلٍّ من: تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين، والتشكُّك والتشكيك، والإعنات، والكلام المنصِف.

– جلّى البحث القِيَم الحيويّة البلاغيّة الحجاجيّة لأساليب الاحتجاج العقليّ، كاشفًا عن بلاغة استعمال كل منها لمقتضى الحال.

– أبرزت الدراسة ارتباط الأغراض البلاغية للحِجاج بأساليبه، وقيامها على مراعاة المخاطب بالمزاوجة بين التعريض في الدعوة، واتباع أسلوب اللين، إلى استعمال الشدة في والتنويع في الأساليب تحقيقًا لمطابقة الكلام لمقتضى الحال.

– أكدت الدراسة تميز الحِجاج القرآنيّ بحضور المخاطب، ومراعاة الموضوع، ومناسبته للزمان والمكان، وبلاغته في التصريف ليكون صالحا لكل زمان ومكان.

– أظهرت الدراسة بلاغة القرآن الكريم في الاستدلال، ومباينته الكبيرة لأساليب الاستدلال الجافة عند المناطقة والمتكلّمين.

– أكّد البحث أن مجال العقل محدود، ولا ينبغي أن يطلق عنانه في الغيبيات، بخاصة فيما يتصل بذات الله وصفاته، وأن قصر المعرفة اليقينية على المحسوسات يفضي إلى الجهل بأكثر الحقائق والتشكيك فيها.

– أبرزت الدراسة تميز ابن تيمية وجهاده هو وتلميذه ابن القيم في الرد على المنطقيين وتفنيد انحرافاتهم.

– أوضح البحث بلاغة الحجج العقلية، وإبداع عرضها، ومراعاتها للتنوّع بين الجانبين الحسي والوجداني، وفئات البشر المختلفة.

–كشف البحث عن العلاقة الوثيقة بين البلاغة والأصول، واشتراكهما في عدد من المصطلحات.

– أوضحت الدراسة أغراض الحجاج القرآنية المتعدِّدة، والفرق بينه وبين الجدل.

– أكّدت الدراسة اجتماع عناصر الإعجاز في البرهان الإلهيّ الخالد الذي اجتمعت له عناصر الحجاج بأسمى درجاته، بالجمع بين الإقناع والإمتاع، وتحريك النفوس وحملها على الإذعان واتباع سبيل الحق، وذلك لاعتماده على أساليب الحجاج التي تشبع العقل والقلب.

– أظهرت الدراسة امتياز أدلة القرآن بتنوعها بين الحسّ والعقل، لتنفذ إلى جميع منافذ النفس، مراعية أصناف الناس ومعتقداتهم ومستوياتهم الثقافيّة والفكريّة ودرجة كلّ منهم في الإنكار.

– تتعدّد الأساليب الحجاجية والوسائل البيانية لتغيير النفوس وبنائها على عقائد سليمة، ولا بد لتحقيق الأغراض من التنويع في الوسائل والأساليب لتباين النفوس في تفكيرها وطبائعها وسلوكها، كما أن البلاغة تقتضي هذا التنويع المناسب لمقامات المخاطبين وحالات السامعين.

– تدعم البلاغة بعلومها الثلاثة أساليب الاحتجاج العقليّ، وتتآزر جميعها لتحقيق غرضه البلاغيّ الحجاجيّ.

– كشف البحث عن جوانب من الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم مصداقًا لما قال محمد أو زهرة: ((فالمتدبر لآياته والمتفكّر في مناهجه يجد فيه ما يعلِّم الجاهل وينبه الغافل، ويرضي نهمة العالم))[1].

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن : ٣٩٤ .

- أكّدت الدراسة وجود الأدلة العقليـــّة في المكيّ والمدنيّ، ردًّا على من يتصيّد في هذه الموضوعات مطاعن ومثالب، وما هم ببالغين من ذلك شيئًا إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

- تناولت الدراسة الفرق بين الجدال بالباطل والجدال بالحق، وبين الأسلوب الحكيم والأسلوب الأحمق والمغالطة.

- أكّد البحث قيمة ما دعا إليه العلماء من الحذر في فهم آيات العقيدة وتوجيهها وفق منهج أهل السنة والجماعة، ففي الاستدلال بالتقابل والاستدلال بالتمثيل في مجال العقيدة ينبغي الاحتراز في التقابل إذا جاء لإثبات الوحدانية وإبطال الشرك أن يكون من النوع الخلافي لا النقيضي، وكذا ما يحمله بعض المفسرين في القضية نفسها على الاستدلال بالتمثيل بينما حمله على الاستدلال بقياس الأولى أدعى لسلامة العقيدة والبعد عن الشبهات.

- دعت الدراسة إلى ضرورة تمحيص الأفعال والأوصاف المسندة إلى الله تعالى، والحرص على استعمال المصطلحات التي تناسب قداسة القرآن، وتليق بمقامه الأسمى.

- كشف البحث عن علاقة الاستدلال بالبلاغة التي أشار إليها السكاكيّ، و لم يدرجه في البلاغة غيره.

- بيَّنـــت الدراسة أنّ القسم المكِّيَّ حافـــل بأنواع الحجج والأدلَّة في التوحـــيد والنبوَّة والبعث، بل إنّ الشواهد التي جمعتها في كلٍّ منهما فـــاق المكِّـــيُّ منها عـــدد المدنيّ.

و «الحقّ أنّ الناس لو شغلوا بدراسة القرآن، وما فيـــه من اســـتدلال؛ لينهجـــوا على نهجه، ويسيروا في طريقه لكان لهم في ذلك علـــم كثير، فإنّ القـــرآن قد اشـــتمل على مناهج في الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية، وتبين شيئًا كثيرًا من أحوال الجماعات النفسيّة والفكريّة، وفيها الطب لأدوائها، والعلاج الناجع لأمراضها، والدواء الشافي لعللها وأسقامها»[1].

(١) المعجزة الكبرى القرآن : ٤١١- ٤١٢ .

وأنهي هذه الخاتمة بتوصيات للباحثين المختصِّين، منها:

١. توجيه الأنظار إلى دراسة الظواهر البلاغية التي تقرب المقاصد القرآنيّة من أفهام الناس، وتشعرهم بعظم إعجازه، وترتبط بالقيم الحيويّة التي تفيد الناس في السير على منهجه، وهذا أدعى إلى خدمة البلاغة، وأجدى من تتبع الظواهر البلاغية والجزئيات في سورة معيّنة، أو دراسة موضوع من موضوعات القرآن وفق علوم البلاغة الثلاثة، مما يقترب مجاله من التفسير الموضوعيّ.

٢. إعادة النظر في علم البديع، ودراسة فنونه وما تحققه من بلاغة في السبك.

٣. العناية بما تحفل به كتب أصول الفقه، وأصول التفسير، وعلوم القرآن والإعجاز من مسائل تجلي قيمة البلاغة القرآنيّة، وتوسِّع آفاق الفهم فيها.

٤. الإفادة من الأساليب التربويَّة للحجاج في الدعوة إلى الله.

٥. الحرص على بناء البحوث البلاغيّة وفق معتقد أهل السنة والجماعة، والحذر عند الأخذ من تفاسير المعتزلة والأشاعرة.

هذا وأحمد الله ﷻ على ما منَّ به عليَّ من صحبة كتابه طيلة أيَّام البحث، وما أفادني عمق هذا الموضوع من غوص في بطون الكتب لأنهل منها وأعلّ وفق ما كنت أطمح إليه من بناء لشخصيتي العلميّة بانتقاء مثل هذه الظاهرة البلاغية المترامية الأطراف، الضاربة في فروع العلم والمعرفة، وأحمده على ما بلَّغني إيَّاه من إتمامه وإخراجه، وأسأله سبحانه أن يباركه، وأن يجعلني أوَّل المنتفعين به، وأن يجعله فاتحة خير! وأستغفره سبحانه من كلِّ خطأ أو خطل، أو تقصير أو زلل! وليشفع لي أنِّي حشدت له كلَّ طاقتي ووسعي. وأسأله أن يجعل ما صرفت فيه من جهد ووقت ثِقَلاً في ميزاني وميزان من أشرف عليه، وسدَّد ما فيه!

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، فله الحمد أولاً وآخرًا، وصلى الله وسلَّم على خير خلقه، وأبلغهم حجّة، وأوضحهم محجّة، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.